أسد الله ورسوله

حمزة بن عبدالمطلب

obeikan.com

obeikandl.com

حمزة بن عبدالمطلب

أسد الله ورسوله

كانت مكة تعيش حياتها التى ألفتها ، لا يهز هذه الحياة إلا تجارة قادمة من الشام أو من اليمن. ولا جديد إلا إذا جدَّ جديد ، كأن يقول شاعر قصيدة يكون لها صداها فى منتديات مكة ومجالسها. ما عدا ذلك فكل شىء عادى .. إلى أن تَهامَسَ الناس بأن دعوة جديدة يدعو إليها محمد بن عبدالله ، وأنه يطلب من الناس عبادة الله الواحد، الذى خلق كل شىء ، وإليه المصير.

ولم يأبه الناس أول الأمر كثيرا ، وما اعتقدوا أنها ستكون دعوة خطيرة ، سوف تهز المجتمع المكى من الأعماق ، ثم تهز شبه الجزيرة العربية كلها ، وبعدها سوف تغير خريطة العالم كله.

لم تكن مكة تتصور أن يُحدِث محمد بن عبدالله هذا التغيير الهائل فى حياتهم وحياة العالم ، فقد سمعوا ورأوا من قبل بعض الحنفاء الذين نبذوا عبادة الأصنام ، ورأوا أيضًا بعض الذين

وجدوا فى النصرانية الطريق السليم ، كما عرفوا أن فى يثرب اليهود الذين يعبدون الله على شريعة موسى عليه السلام.

ولكن سرعان ما تغيرت الأمور بسرعة شديدة ، وأصبح حديث الرسالة التى جاء بها محمد بن عبدالله ﷺ الشغل الشاغل، فلا حديث لهم إلا عن هذه الدعوة الجديدة ، التى تسفه دين الآباء والأجداد ، وتنبه الناس إلى فقدان إدراكهم ، عندما يعبدون من دون الله حجارة لا تنفع ولا تضر .

وهالهم أكثر أن هذه الدعوة لا تجعل الأسياد فوق رقاب العباد، ولكن لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى ، وأن العبد إذا آمن بالله ورسوله ، وعمل بالمنهج الذى يدعو إليه الرسول الكريم يكون أرفع درجات عند الله، من السيد الذى أشرك بالله بل يكون أرفع درجات عند ربه من الحر المسلم ، إذا كان أكثر منه تقوى لله.

لم يكن الأمر إذن بالسهولة التى تصورتها قريش فى أول الأمر، ولكن هالهم ما سمعوه عندما جمعهم رسول الله ﷺ عند جبل الصفا، وقال للناس: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تريد أن تُغير عليكم من وراء هذا الوادى أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم.. ما عهدنا عليك كذبًا .. فقال لهم: فإنى رسول الله إليكم جميعًا

بين يدى عذاب شديد» . .

ورد عليه عمه أبو لهب: تبا لك! ألهذا جمعتنا؟! ونزلت آيات القرآن الكريم: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ١- ٥].

وبدأ الصراع على أشده بين الشرك والإيمان.

وعرفت بطحاء مكة ألوان التعذيب التى تعرَّضَ لها المؤمنون من رؤوس الشرك.

ولم يسلم النبى نفسه - رغم أنه من بنى هاشم - من بطش المشركين ، وكان على رأسهم «أبو جهل» عمرو بن هشام، وعمه «أبو لهب».

ورغم كل هذه الأحداث التى تجرى فى مكة ، فقد كان حمزة ابن عبدالمطلب يعيش حياته ، فارسًا يجيد القنص والصيد ، وكان يشاهد ويسمع عن دعوة ابن أخيه، ولكنه كان مشغولاً عن كل ذلك بالصيد، إلى أن سمع ذات يوم أن أبا جهل قد تعرَّضَ لابن أخيه بما يسوؤه ، فأخذته حمية العصبية ، واتجه بجواده يبحث عن عدو الله أبى جهل، فلما رآه عند الكعبة يتباهى بالأذى الذى

سببه للرسول ، ما كان من حمزة إلا أن شج رأسه، وهو يقول له: كيف تتعرض له وأنا على دينه؟

وأمام هيبة حمزة لاذ أبو جهل بالصمت المهين.

ودخل الحمزة الإسلام. وبدخوله زادت هيبة المسلمين. وما لبث أن دخل عمر بن الخطاب هو الآخر فى دين الإسلام. وعندما ذهب ابن الخطاب ليعلن إسلامه أمام الرسول الكريم - فى دار ابن أبى الأرقم- شعر المسلمون فى دار الأرقم أن مجيء عمر بن الخطاب إلى هذا المكان لا يبشر بالخير ، إلا أن حمزة بن عبدالمطلب طلب من الناس أن يهدؤوا . .فإذا جاء يعلن إسلامه فهذا خيرا له ، وللمسلمين ، وإذا كان يضمر شيئًا فسوف يقتله بسيفه.

وأسلم عمر بن الخطاب ، وكان يومًا مشهودًا من أيام التاريخ، حيث خرج المسلمون وعلى رأسهم الحمزة ، وعمر بن الخطاب جهارًا نهارًا ؛ ليعلنوا ولاءهم للدين الجديد.

وتمضى خُطا الأيام ، والنبى يجاهد جهادًا عظيمًا؛ لنشر دين الله، رغم كل ما يلاقيه من طغيان مكة وصلف زعمائها ، ونور الإسلام ينتشر ببطء ، ولكن رايته مرفوعة. وما أحدثه من أصداء عالية يهز هذا المجتمع الغارق فى جهالات الآباء والأجداد.

ويحدث ما لم يكن فى الحسبان ، عندما يهاجر النبى الكريم وصحابته إلى يثرب ، وتنقلب مكة ، وتنقلب كل الموازين وكل الحسابات ، وتأخذ الدعوة مسارًا حاسمًا ، ثم يجن جنون مكة عندما جاءها النذير ، بأن النبى تعرض لقافلة لها كان يقودها أبو سفيان، ويستعر أوار النار التى تأكل صدورهم ، حقدًا على النبى وصحابته ، وتُدَقُّ طبول الحرب. ورغم وصول أبى سفيان سالمًا بتجارة مكة، ورغم أن الأمر كان يمكن أن ينتهى عند هذا الحد، فإن دوافع الحقد والغضب كانت أعلى من نداء الحق، والعقل، فلم يستمعوا إلى أبى سفيان ، وقرروا خوض المعركة؛ حتى ينتهوا نهائيا من الدعوة وصاحبها ، فقد صوَّر لهم خيالهم المريض أنها فرصة للقضاء النهائى على الدين الجديد، وخاصة أن المئات من شباب مكة وشيوخها وكبار رجالاتها يلهبهم الحماس الغاضب والدافع الأعمى؛ للتخلص نهائيا من هذا الدين الذى طيَّر النوم من عيونهم. وتحركت الجموع الغاضبة لتهاجم المسلمين.

وعند بئر بدر ، عسكرت تلك الجموع الغاضبة ، التى تزيد عن الألف تهزهم نشوة القوة ، وهم يرون النبى فى جنده ، لا يمثلون إلا أقل من ثلث جيش الشرك.

واقتربت الساعات الحاسمة ..

ونظرة إلى أرض المعركة تعطى صورة لأهمية هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ الإسلام .

فالوادى الذى تقوم عليه آبار بدر تطل عليه من الشمال والشرق جبال عالية ، وفى الجنوب توجد الصخور العاتية ، بينما الكثبان الرميلة منحدرة نحو الشرق والغرب ، وتمتلئ بالكثبان متجهة نحو البحر ، الليل عاصف ، وسرعان ما هبطت الأمطار ، وأصبح الصباح، وأشرقت الشمس، وكالعادة تبدأ المعركة بمبارزة شخصية، وترتفع من بين جيوش المسلمين سيوف حمزة بن عبدالمطلب ، وعلى بن أبى طالب، وعبيدة بن الجراح ، وكلهم من بنى هاشم .

ويخرج من صفوف الشرك شيبة وعتبة بن الوليد ، بينما كان يرفع أعلام المكيين بنو عبد الدار. ويجهز حمزة وعلى وعبيدة على أعدائهم ، وتبدأ المعركة حامية الوطيس ، وإذا بالقلة المؤمنة تحقق انتصاراً مذهلاً ، وكان الحمزة بن عبدالمطلب كالأسد الثائر، وسط المعمعة. إنه لا يحمل سيفًا ، ولكنه يحمل الموت مجسداً فى سيفه. وتتهاوى الرقاب التى تحاول أن تتصدى له ، وتنجلى المعركة ، فإذا جثث المشركين تملأ الوادى ، وإذا بقادتهم الذين

كانوا ملء السمع والبصر مجندلون فى دمائهم ، وعلى رأسهم عدو الله أبو جهل.

سبعون قتيلاً على الرمال من أعداء الله . . وسبعون أسيرًا.

ويأمر النبى بدفن الموتى ، ويعود إلى المدينة ، وقد حقق الله وعده ، وتم النصر ، ولم يعد الإسلام فى موقف الدفاع ، بل أصبح يدير المعركة للتحرك والهجوم فى أى بقعة من شبه الجزيرة، وأصبحت كلمة الإسلام يُحسَب حسابها ، فلم تعد المشكلة هى الصراع بين مكة والمدينة ، بل تحولت الأمور بسرعة ، وأصبح الإسلام بيده زمام المبادرة ، وأصبح الحديث عنه على كل لسان ، ودخل فيه أناس كثيرون .

وما كانت مكة ، وقد مُنِيَتْ بكل هذه الهزيمة بقادرة على أن ترفع رأسها بين العرب ، بل أرادت أن تغسل عن نفسها عار الهزيمة. لقد عاد من عاد منهم كسير الجناح يريد الانتقام ، ومن مات ترك الحسرة والألم والرغبة فى الثأر بين أهله .

وانتعش الاقتصاد فى المدينة بعد هذه الغنائم التى آلت إلى المسلمين. ولم يكن قد بدأ العام الثالث من الهجرة ، حتى كانت قريش قد أعدت ثلاثة آلاف مقاتل تحاول القصاص عند «أُحد».

وكانت هند زوجة أبى سفيان - قائد هذا الجيش - تحض الناس على القتال ، وكان الغل يملأ قلبها، من حمزة، فهو قاتل أبيها عتبة. لقد خرجت هى الأخرى مع بعض النسوة يحرضن المشركين على القتال ، وكانت قد طلب من وحشى أن يقتل حمزة، ووعدته أن تحرره إذا فعل ذلك. وكان وحشى يجيد الرماية بالرمح.

ودارت معركة رهيبة عاتية ، وكانت هناك سيوف ثلاثة من أكثر السيوف حصداً فى رؤوس أعداء الله: سيف أسد الله حمزة ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى دجانة الذى كان يحارب بسيف الرسول ، وأخذ يمشى مشية يختال بها بين الصفوف ، حتى قال عنه الرسول الكريم وهو يراه يمشى هذه المشية المختالة ، ولا يأبه بشىء إلا الشهادة:

«هذه مشية يأباها الله ورسوله إلا فى هذا الموقف ، وأخذ ينشد:

إن الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيلِ
ألا أقوم الدهر فى الكبولِ[1] تضرب بسيف الله والرسولِ

(١) فى الكيول: فى الصفوف

هذه السيوف الثلاثة كانت تحصد الرؤوس حصداً. وإذا بالمعجزة تكاد تتحقق ، وتكاد هند أن تجن وهى ترى انتصارات المسلمين ، فتصيح فى قسوة للمشركين محرضة الرجال على القتال:

وإن تقـــــبلوا نعـــــانقْ
ونفـــــرشِ النمـــــارقْ
أو تـــدبـــــروا نفـــــارقْ
فـــــراق غـــير وامـــــقْ

ولكن أبا دجانة يخترق صفوف الأعداء ، ويصل إلى هؤلاء النسوة، فيفررن من أمامه ، وعدو الله وحشى يراقب أسد الله حمزة بن عبدالمطلب ، حتى تمكَّنَ من ضربه بحربته ، واستشهد أسد الله حمزة.

كاد المسلمون أن يحققوا النصر فى «أُحد» ، لولا أن خالف الرماة أوامر النبى ، وتركوا الجبل ، ونزلوا نحو الغنائم ، فكانت فرصة استغلها خالد بن الوليد ، واحتل هذه الأماكن الحصينة ، واختل التوازن ، ولولا التفاف المسلمين حول النبى لتحولت المعركة إلى هزيمة.

ولكن يبدو أن أبا سفيان خشى - وقد رأى التفاف الناس حول الرسول الكريم - أن تدور الدائرة على قريش، فآثر هذا النصر السريع ، ونادى فى المسلمين:

« أنعَمتْ فِعال[1] ، وإن الحرب سجال ، اليوم بيوم ، أعل هبل، إن موعدكم فى العام المقبل».

وأمر النبى ابن الخطاب أن يرد عليه ، فقال:

« الله أعلى وأجل ».

ويلحق أسد الله حمزة بركب الشهداء، لبت روحه نداء خالقها، ولكن عين هند بنت كعب كانت تتحين هذه الفرصة ، فإذا بها تتقدم لتلوك بفمها كبد حمزة بن عبدالمطلب.

ويقول الرواة إنها رددت هذا القول:

شَفَيْتُ نفسى وقَضَيْتُ نَذْرِى
أزاح وَحْشِى غَليلَ صَدْرى

كم كانت ساحة المعركة حزينة لفراق أبطال الإسلام! وما أعظم أحزان النبى نفسه ، وهو يتفقد المعركة ، ويرى أصحابه الذين فارقوا الدنيا! وتقع عيناه على جثة عمه الحمزة ، صديق طفولته

(١) أى بالغنا فى فعالنا.

وشبابه ، فهو فى نفس سنه ويقول ﷺ:

لن أصاب بمثلك أبدًا !

ويقول أيضًا : لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بسبعين رجلاً منهم !

قال النبى ذلك والحزن يعتصره من الأعماق ، ولكنه نبى. إنه داعية الرحمة والإخاء والمساواة ، فإذا بآيات الله الكريم تنزل بردًا وسلامًا على قلب الرسول:

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨].

يا لجلال الله! ويا لجلال النبوة! حتى فى هذا الموقف الصعب يصحح الله للناس موازين العدل، إنه لا ينبغى له وهو نبى أن يمثل حتى بالذين مثلوا بالمسلمين، والعقاب لا يتعدى المثل، والعفو أجمل.

وصلى النبى على الشهداء ، وغادر الحمزة دنيا الناس ، إلى أعظم جوار . . صورة لشجاعة القلب والعقل نادرة المثال.

والعجيب أن وحشيا قاتل حمزة قد أسلم فيما بعد ، وظل يؤرقه ما قام به من عمل دنىء ، وأراد أن يكفر عما اقترفت يداه، وخاصة بعد أن رأى النبى يشيح بوجهه عنه عند إسلامه ، وقال له : «غَيِّبْ عنى وجهك».

ومن هذه اللحظة كان الندم يهزه من الأعماق ، حتى حرص على ألا يراه الرسول. وعندما قامت فتنة مسيلمة الكذاب فى اليمامة خرج ، وحشى مع جيش المسلمين لقتال هذا الدعِىِّ ، وصوَّبَ له نفس الرمح الذى قتل به الحمزة، فأرداه قتيلاً .

ويقول الرواة إنه قال:

« فإن كنتُ قد قتلتُ بحربتى هذه خير الناس، وهو حمزة ، فإنى لأرجو أن يغفر الله لى إذ قتلت بها شر الناس مسيلمة».

****